العلاقات الروحية والعلمية بين منطقة الجلفة (الجزائر) وزاوية نفطة (تونس) خلال النصف الثاني من القرن 19م

د : عبد القادر قوبع

جامعة الجلفة (الجزائر)

الملخص:

تتناول هذه المداخلة بعض المحطات الهامة في العلاقات التي ربطت بين منطقة الجلفة (وسط الجزائر) وزاوية نفطة (تونس) بتأثير واضح من الرابطة الدينية الصوفية (الرحمانية) خصوصا. حيث سنركز على العلاقات الروحية التي ربطت زاوية عين اقلال (الجلفة) بزاوية نفطة وذلك بالاعتماد على رسائل مخطوطة تظهر لأول مرة. كما سنتطرق لحادثة لجوء أحد مجاهدي منطقة الجلفة وهو الطيب بوشندوقة الى زاوية طولقة فرارا من الفرنسيين في الجزائر عام 1863 لطلب الأمان عند شيخها رغم مطالبة الفرنسيين بتسليمه حسبما تكشف عنه الوثائق الأرشيفية.

Apstract:

This article addresses some important stations with the relations having linked thr region of Djelfa (center of Algeria) and the Zaouia of Nafta (Tunis) by an apparent influence of the spiritual religious league Soufi (Rahmania precisely), so, we focus on the relations spiritual having linked the Zaouia of Ain Aghlal (Djelfa) to that of Nafta and this based on unpublished handwritten letters. We will also carry the event of the asylum of one of Moudjahidin of the region of Djelfa who is : Tayeb Bouchandouga and the Zaouia of Nafta by escaping from the French solidiers in Algeria in 1863 to seek pease from his master the sheikh despite the French having demanded it's delivery as informed in the archival documents.

مقدمة:

من المعروف أن العلاقات بين الجزائر وتونس علاقات ضاربة في القدم ومتشعبة الجذور والفروع والمجالات بفعل عوامل كثيرة منها ماهو ثابت مستمر ومنها ما هو متجدد، ويكفي أن نعلم بأن البلدين سبق لهما أن شكلا في مراحل عدديدة كيانا سياسيا واحدا ونسيجا اجتماعيا واحدا وثقته الروابط العائلية و اللغة والدين والعادات والتقاليد والطرق الصوفية...

في هذا الإطار سنخصص مقالنا في مظهرين من مظاهر العلاقات الجزائرية التونسية من خلال منطقة جزائرية تبدو بعيدة عن الحوادث وعن الحدود التونسية، ونقصد بها منطقة الجلفة التي ارتبطت روحيا وثقافيا بزاوية نفطة. وذلك لاستجلاء مظهرين من مظاهر هذه العلاقات المظهر الأول هو عن العلاقة العلمية والروحية الكبيرة التي جمعت الشيخ المختار بن خلفية من زاوية عين أقلال (الجلفة) بزاوية نفطة وشيوخها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، أما المظهر الثاني فهو حادثة لجوء أحد المجاهدين الجزائريين المدعو الطيب بوشندوقة من منطقة الجلفة إلى زاوية نفطة طلبا للأمان بعدما قاموا بعملية بطولية ضد الفرنسيين في منطقة الجلفة (300كم جنوب مدينة الجزائر) في 1861.

1- رحلة الشيخ المختار خليفة الى زاوية نفطة:

1-1- مولد الشيخ المختار خليفة ونشأته:

ولد الشيخ المختار خليفة حوالي عام 1249هـ/ 1834 حسبما يستفاد من جواز سفره بتاريخ 16 أكتوبر 1869 الذي ذُكر فيه بأن عمره 35 سنة. ولد في جبل الخيثر بمنطقة بويرة الأحداب التي تقع اليوم في ولاية الجلفة بين مدينتي حاسي بحبح وحد الصحاري، ونسبه الكامل هو المختار بن خليفة بن بلقاسم بن قويدر بن جلول بن الطاهر بن سيدي عيسى بن عبد الرحمن بن سيدي الناصر(مول الحدبة).[1] درس وترعرع في زاوية والده في المنطقة ثم ارتحل شرقا إلى الزوايا الرحمانية كزاوية الشيخ المختار بأولاد جلال.[2]

1-2- رحلته إلى زاوية نفطة:

استقر الطالب المختار بن خليفة بزاوية نفطة بالجنوب التونسي للنهل من علوم الظاهر والباطن خاصة أنها شهدت في هذه المرحلة ازدهارا علميا كبيرا إذ كانت نقطة اجتماع والتقاء مشاهير العلم وشيوخ التربية الروحية. وتحتفظ لنا إحدى الوثائق في مكتبة زاوية عين أقلال ببزيرة الأحداب بقصيدة مهمة جدا تعكس لنا

انقطاع الطالب المختار بن خليفة للدروس واندماجه التام في جو الدراسة والتربية بزاوية نفطة إلى الدرجة التي كاد أن ينسى فيها أهله فلم يراسلهم لسنوات، الأمر الذي دفع بوالده الى مراسلته بهذه القصيدة معاتبا له وطالبا الاطمئنان عليه، يقول في بعض الأبيات منها:[3]

سلام الله للفتى الأوّاب ما حنّ مشتاق إلى الأحباب

من فاء بالعلم على الأكابر وامتثلت لأمره الجبابر

من أبيه إلى ابننا ولدنا المختار بن خليفة

إنّ المُسلّم عنك أباك من كان في صغرك ربّاك

علّمك القرآن مع الرسم وخطه يغنيك عن الاسم

أشفق عنك في الزمان الماضي في حالة الصحة والأمراضِ

ثم يختم القصيدة بطلبه من ابنه رد الجواب:

وردّ لي الجواب يا حبيب ليطمئن القلب ويطيب.

وحسب تتبعنا للشواهد والحوادث من خلال ما تتوفر عليه مكتبة زاوية عين اقلال من وثائق فإننا نرجح أن تاريخ عودته إلى أهله قد كان حوالي 1860 متفرغا للتدريس بزاوية العائلة. وفي عام 1869 يعاود الشيخ المختار بن خليفة الرحلة شرقا وهذه المرة لأداء فريضة الحج وطلب العلم والاستجازة، وهي الرحلة التي دامت حوالي ثلاث سنوات شملت مصر والشام والحجاز.

وقد جعل الشيخ المختار زيارته لزاوية نفطة في طريق عودته من رحلته المذكورة، و من المرجح أنه وصل نفطة عام 1290هـ/ 1873، أما هدفه فهو زيارة شيوخه في العلم والتصوف وهي عادة معروفة في العالم الإسلامي وكذلك للاستراحة من عناء السفر باعتبار الزوايا كانت محطات راحة للطلبة والشيوخ، ويظهر من خلال بعض الوثائق والقرائن أنه قد استقر بالزاوية فترة للتدريس ونشر ما جاء به من بلاد الحجاز والشام ومصر من إجازات وفوائد، فتصدى للتدريس فيها. وفي رسالة كتبها الشيخ المكي بن عزوز إلى الشيخ المختار نستنتج نزول الشيخ المختار بزاوية نفطة في هذه السنة بالضبط، حيث ورد فيها: " إلى العلامة التقي العارف بالله شيخنا سيدي المختار ابن الخليفة بارك الله في أوقاتكم الشريفة السلام عليكم ورحمة الله وبعد فإنّا نحمد الله على عافيتكم وإني مشتاق إليكم ولم يقدر الله الاجتماع بكم في عام 1289 والأمور على مراد

الله... ".[4] ومن زاوية نفطة واصل الشيخ طريقه نحو زوايا الرحمانية الواقعة في طريقه (طولقة، سي المختار (أولاد جلال)، الهامل) وصولا إلى زاوية عائلته بعين اقلال .

1-3-مراسلات الشيخ المختار مع زاوية نفطة:

تعكس لنا المخطوطات المتوفرة بمكتبة زاوية عين أقلال نشاط الشيخ المختار بن خليفة ومراسلاته المتنوعة وإجازاته الكثيرة ورحلاته العديدة، ولا ندري هل هناك وثائق ورسائل وإجازات أخرى ضائعة أو تالفة؟ لأن ما تعرضت له الزاوية من إهمال وسطو في السابق يعزز شكوكنا.

ويهمنا في هذا الإطار العلاقات العلمية والروحية التي كانت قائمة بين الشيخ المختار ومشايخ زاوية نفطة والتي تعكسها بعض الرسائل والإجازات:

- رسالة من الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزوز إلى الشيخ المختار:

وهي رسالة من العلامة محمد المكي بن مصطفى بن عزوز إلى الشيخ المختار بن خليفة، مؤرخة في ذي القعدة 1290هـ/ 1873، كتبها الشيخ محمد المكي للاطمئنان على شيخه وأستاذه المختار، لذلك يصفه بعبارات "شيخنا" و "السلام من مقبل يدكم". ويذكر في الرسالة أسفه الشديد لعدم الاجتماع به ولقائه أثناء زيارته لزاوية نفطة عام 1289هـ، كما تذكر الرسالة أخبارا أخرى منها وفاة شقيق محمد المكي المدعو محمد بن عزوز و كذلك عمه المدعو سيدي التارزي .[5]

- رسالة ثانية من الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزوز إلى الشيخ المختار:

وهي رسالة مؤرخة في 20 محرم 1315هـ/ 02 جوان 1897، كتبها الشيخ محمد المكي ردا على رسالة سابقة من الشيخ المختار إليه، موضوعها الاطمئنان على أحوال الشيخ المختار وكذلك التعبير عن حالة الحزن التي خلّفتها وفاة الشيخ محمد بن أبي القاسم شيخ زاوية الهامل على الشيخ محمد المكي وعلى جميع الأحباب والمريدين، وهذه العاطفة الصادقة والرابطة الروحية بين زاويتي نفطة والهامل وعين أقلال تفند الادعاءات والكتابات الفرنسية التي كانت تركز على نقطة التنافس بين الزوايا والصراع المادي والسياسي دون التفات هذه الكتابات الى مثل هذه الشواهد الصادقة الصافية.

كما تلفت هذه الرسالة الانتباه إلى الاحترام الدائم والامتنان الكبير من الشيخ محمد المكي لاستاذه وشيخه المختار بن خليفة، فيكتب في مستهل رسالته:" سيدي وشيخي وولي نعمتي العلامة البحر الواسع

الشيخ سيدي المختار بن خليفة"، وفي ختامها يكتب:"فضلكم مطوق به عنقي جازاكم الله عني خيرا وأحيا بكم العباد والسلام من مقبل يديكم الكريمتين، تلميذكم محمد المكي بن مصطفى بن عزوز".[6]

- رسالة أخرى من محمد المكي بن مصطفى بن عزوز إلى الشيخ المختار:

وهي رسالة تعكس لنا جانبا وملمحا من العلاقات الثقافية والعلمية بين الرجلين، حيث يذكر الباحث بشير ضيف في جرده لمحتويات خزانة زاوية عين أقلال أن الشيخ محمد المكي في الرسالة المنسوبة له قد اشتكى من غلاء أسعار الكتب في مدينة اسطنبول مقر إقامته، ويبدو أن هذا كان ردا على طلب اقتناء كتب أرسله اليه الشيخ المختار، حيث لاحظنا أن الشيخ المختار كان كثير المراسلة لتلاميذه وزملائه طلبا لاستنساخ كتب أو اقتنائها. وللأسف الشديد أننا لم نعثر على هذه الرسالة في زياراتنا العديدة لها.[7]

- رسالة المحدث الشيخ أحمد الأمين بن محمد المدني بن عزوز الى الشيخ المختار:

وهي رسالة مؤرخة في 22 جمادى الثانية 1314هـ/ 27 ديسمبر 1896 ويظهر أن موضوعها هو في شأن تبرعات أو اشتراكات بعث بها الشيخ المختار إلى الشيخ أحمد الأمين، حيث يخبره الشيخ أحمد الأمين بأن المبلغ الذي وصل الى تونس هو مئة دورو فقط وذلك بواسطة "العالم السمح النحرير سيدي محمد بن الحاج محمد" مستفسرا عن مصير المبلغ المتبقي، كما يظهر من هذه الرسالة أن هناك رسائل عديدة متبادلة بينهما على عنوان في مدينة بوسعادة وآخر في بوغار (لعلها بوخاري نسبة إلى قصر البخاري أو بوغار ولكنها منطقة صغيرة جدا وكلتا المنطقتين في ولاية المدية حاليا)، ويختم الرسالة بالدعاء له ولأهله ومذكرا إياه برابطة العلم التي جمعتهما مع بعض في زاوية نفطة رغم أنه يخاطبه في الرسالة بقوله:"شيخنا سيدي المختار بن خليفة".[8]

2- لجوء الثائر الطيب بوشندوقة إلى زاوية نفطة:

2-1- مولد الطيب بوشندوقة ونشأته:

ولد الطيب بوشندوقة حوالي عام 1826م باعتبار أن عمره في عام 1861 هو 35 سنة، والده هو محمد بن السيفر، ينتمي الى فرع أولاد امْعَيلَب إحدى فروع قبيبة أولاد سي أحمد التي تعتبر من أشرس قبائل أولاد سيدي نايل، فهي القبيلة التي أنجبت الفارس الثائر التلي بلكحل الذي قاوم العثمانيين ثم الفرنسيين على السواء.

درس الطيب القرءان الكريم وعلوم العربية والإسلام في زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال ثم عاد إلى مسقط رأسه بنواحي الزعفران قرب الجلفة.[9]

2-2-الهجوم على المركز الفرنسي بالجلفة:

في إحدى المناسبات التي خصصها بعض أعيان قبيلة أولاد سي أحمد لزيارة زاوية سي المختار بأولاد جلال لتقديم واجب العزاء في وفاة الشيخ المختار، ولمّا وصل الوفد إلى منطقة الكرموصة قرب "المويلح" شرق منطقة الجلفة في 12 أفريل 1861 انقسم الوفد الى قسمين: فئة الشباب بقيادة الطيب بوشندوقة أمّا الكهول والشيوخ تابعوا طريقهم شر قا نحو أولاد جلال. وفي ليلة 14 أفريل حوالي الساعة الحادية عشر وبمعية 50 شابا قاد بوشندوقة هجوما مسلحا على البرج الفرنسي الذي كان يحرس المنطقة التي ستصبح فيما بعد مدينة الجلفة، وقد أصاب الهجوم الفرنسيين إصابات بليغة. وبعد الهجوم سارع المهاجمون الى الانسحاب لكن إثر وشاية من بعض السكان تم القبض على 14 شابا من قبيلة أولاد سي أحمد وشابين اثنين من عرش السحاري، وبسرعة فائقة عقدت فرنسا مجلسا عسكريا وقررت إعدام هؤلاء وردمهم في حفرة عميقة صارت تعرف بمطمورة 16، تقع الآن في معلم تاريخي قرب مركز الشرطة بوسط مدينة الجلفة.[10]

2-3- لجوء بوشندوقة إلى زاوية نفطة و مصيره:

لقد شاعت ظاهرة اللجوء وطلب الأمان وقبلها الهجرة إلى تونس بين الجزائريين خاصة خلال بدايات العهد الفرنسي بالجزائر وعدم استحكام الحماية الفرنسية على تونس، ورغم ذلك استمرت هذه الظاهرة التي كانت تعكس مكانة تونس في الوجدان الجزائري.

وتتحدث الرواية الشفوية في فرع قبيلة أولاد سي أحمد بأن الطيب بوشندوقة قد فرّ نحو زاوية أولاد جلال ومنها إلى تونس فليبيا ليستقر في مصر غرب الاسكندرية.[11] أمّا الوثائق الأرشيفية التونسية فتخبرنا بأن بوشندوقة قد لجأ الى زاوية نفطة المعروفة بلجوء المتابعين من السلطات إليها طلبا للأمان، ففي رسالة من أمير اللواء السيد رستم مستشار وزارة العمالة في شهر محرم 1278هـ/ جويلية 1861 يتحدث فيها عن بريد وصل إلى الباي محمد الصادق من المارشال بيليسيه حاكم عموم الجزائر يخبره فيها بأنه : " بلغه أن الطيب بوشندوقة ونفرين آخرين المتهومين معه في غارة وقعت سابقا على دشرة جلفة هربوا لزاوية في نفطة ووجدوا

سي المبروك بن عزوز شقيق كبير الزاوية.." وتطلب الرسالة بأن " يبحثوا عن الطيب بوشندوقة والنفرين اللذين معه غاية البحث ويخبرونا عن جميع ذلك بسرعة".[12]

وتذكر رسالة أخرى بأن السلطات الفرنسية قد انزعجت من ذلك وراسلت القنصل الفرنسي في تونس لتبلغه مطالبتها تسليم بوشندوقة ورفيقيه باعتبارهم مجرمين قاموا بالاعتداء على المصالح الفرنسية وقتل جنود فرنسيين في الجلفة بالجزائر. كما تشير الوثيقة إلى أن باشاغا أولاد سي امحمد (الفرع الغربي من قبيلة أولاد نايل) سي الشريف بلحرش حاكم الجلفة هو من توسط لبوشندوقة لدى سي المبروك شقيق شيخ زاوية نفطة – باعتبارهما مريدين رحمانيين وتلميذين سابقين في زاوية سي المختار بأولاد جلال (بسكرة)-. كما تشير الرسالة إلى احتمال سفر هؤلاء الثوار وراء المجاهد ناصر بن شهرة الذي لجأ أيضا إلى تونس بعد فشل مقاومته للفرنسيين في وسط الصحراء الجزائرية:" ووجدوا هناك سي مبروك بن عزوز من البرج صاحب باشاغا اولاد سيدي امحمد الجلفاوي وشقيق كبير الزاوية المذكورة...والثلاثة أنفار المذكورين سافروا في الحين ولحقوا جرّة ناصر بن شهرة فالمرغوب منكم أن تطلبوا من جناب الباي أن يسلمنا الأنفار المذكورة ليتحقق غيرهم أن التراب التونسي لا يحمي الجناة".[13]

لكن مجرى الأحداث بعد ذلك والوثائق الأرشيفية التونسية والفرنسية تثبت وتؤكد أن زاوية نفطة لم تُسلّم الثائر بوشندوقة والمرجح أنه واصل طريقه إلى ليبيا أو مصر...

الخاتمة:

من خلال الحادثتين السابقتين يمكننا تصور قوة العلاقة الروحية والعلمية بين زاوية نفطة وغيرها من الزوايا الجزائرية وأبنائها خاصة من الطريقة الرحمانية، ولعل رحلة الشيخ المختار بن خليفة من زاويته المنعزلة في منطقة الجلفة الى هذه الزاوية وحفاظه على علاقته الروحية والعلمية بالزيارة والمراسلة واحتفاظ مشايخها وأبنائها بفضله وسبقه في العلم يثبت أن العلاقات العلمية لم تنقطع بين المناطق التونسية والجزائرية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حادثة لجوء الطيب بوشندوقة ورفيقيه الى زاوية طولقة طلبا للأمان كما كان يفعل كثير من المجاهدين والثائرين والمتمردين تعكس المكانة الروحية لهذه الزاوية خاصة وأن الجزائر كانت تعاني في تلك الفترة القمع الفرنسي الغاشم بينما كانت تونس محافظة على استقلالها وسيادتها. كما أنه يمكننا أن

نستخلص عاملا مهما من العوامل الكثيرة المتفاوتة التي وطدت هذه العلاقة وهو الموقع الجغرافي لتونس الذي يمر عبر ه الجزائريون إلى بقية البلدان العربية والاسلامية خاصة بلاد الحجاز.

1- علي بن عبد الله النعاس ، تنبيه الأحفاد بمناقب الأجداد باقة من العلماء والصلحاء لمدينة الجلفة وضواحيها، ط2، مطبعة رويغي، الأغواط،، 2016 ، ص ص 194، 195

2- محمد الصغير الجلالي، تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، تح: طاهيري مختار بن الحاج مصطفى، ط1، الجزائر، دار كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2013، ص 331

3- خليفة بن بلقاسم، سلام الله للفتى الأوّاب، دون رقم، دت، مخطوطة بمكتبة زاوية عين أقلال

4- محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، رسالة، دون رقم، ذو القعدة 1290هـ مخطوطة في مكتبة زاوية عين أقلال.

- محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز: أديب وشاعر وقاض وفقيه ومحدث، ولد بنفطة حوالي 1270هـ، درس بالزيتونة، ارتحل إلى الأستانة حيث عيّنه السلطان عبد الحميد مدرسا للفقه والحديث في دار الفنون، توفي بالأستانة عام 1915، ترك آثاراكثيرة منها: "رسالة في أصول الحديث"، " السيف الرباني"، "هيئة الناسك"، "الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية"، "الجوهر المرتب"، "بروق المباسم في ترجمة محمد بن أبي القاسم"....

- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص ص 859، 860

- عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت،، ط2، 1980، ص ص 231، 232

5- محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، رسالة، دون رقم، ذو القعدة 1290هـ، مخطوطة في مكتبة زاوية عين أقلال

6- محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، رسالة، دون رقم، 20 محرم 1315 ه، مخطوطة في زاوية عين أقلال

7- ضيف بشير بن أبي بكر، مطبوعات ومخطوطات مكتبة زاوية عين أقلال، إشراف: خليفة بولنوار شيخ زاوية عين أغلال، دت، دون رقم، مخطوطة، زاوية عين أقلال

8- أحمد الأمين بن محمد المدني بن عزوز، رسالة، دون رقم، جمادى الثانية 1314هـ ، مخطوطة في مكتبة زاوية عين أقلال

9- عبد القادر فكرون، محاضرة في مدرسة الإخلاص بالجلفة، 2019/01/12، 11سا

- Bureau de la correspondance générale et des opérations unifilaires , attaque du Village de Djelfa par des arabes , N : 469, 25-04-1861

10 -Bureau de la correspondance générale et des opérations unifilaires , attaque du Village de Djelfa par des arabes , N : 469, 25-04-1861

- bureau arabe de Djelfa , attaque de Djelfa, interrogations de six accusé, N : 952, 11-06-1961

11- عبد القادر فكرون، محاضرة في مدرسة الإخلاص بالجلفة، 2019/01/12، 11سا

12- الأرشيف التونسي، السلسلة التاريخية، الصندوق 212، الملف 232

13- الأرشيف التونسي، السلسلة التاريخية، الصندوق 212، الملف 232، ع 34

- إدريس رائسي، القبائل الحدودية التونسية الجزائرية بين الإجارة والإغارة 1830-1881، الدار المتوسطية للنشر، ص 89